الخادم

بَيْنَ الازدواجيّة والمصداقية

مراجعة
نيافة الأنبا إيسوذورس

إعداد
راهب من دير البراموس

الخادِم

لوندي

بَيْنَ الازدواجيّة والمِصداقيّة

مراجعة
نيافة الأنبا إيسوذورس

إعداد
راهب من دير البراموس

إسم الكتاب : الخادم بين الازدواجية والمصداقية

مراجعة : نيافة الأنبا ايسوزورس

إعداد : راهب من دير البرموس

الجمع والإخراج الفنى : إم . سى للتجهيزات الفنية ت: ٦٣٣٨٢٢٥

الغلاف : ليڤلز *Levels* ت: ٦٣٢٤١٠٣ (٠٢)

الطبعة : الثانية يوليو ٢٠٠٣م

الأولى نوڤمبر ٢٠٠٢م

المطبعة : مركز الدلتا للطباعة ت: ٥٩٠١٩٢٣ (٠٣)

رقم الإيداع : ١٩٦١١ / ٢٠٠٢

قداسة البابا شنوده الثالث

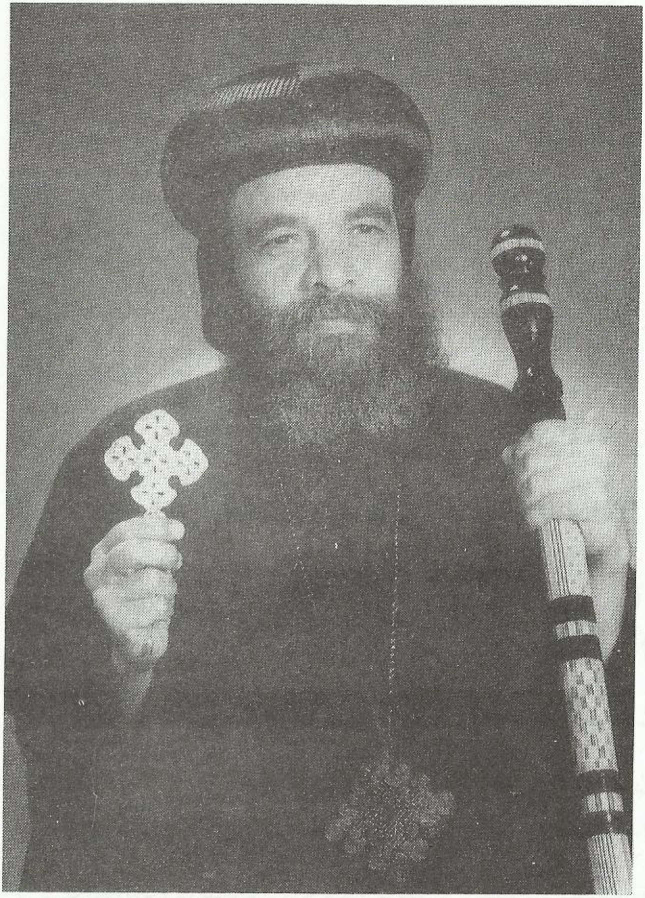

نيافة الأنبا إيسوذورس

أسقف دير البرموس العامر

الخادم

بين الازدواجية والمصداقية

لم أقصد من العنوان إنفصام الشخصية ، حاشاً ، بل قصدت التنويه عن أنه قد يكون للخادم أو الراعى بشكل عام : ما له من جهة وما للناس من جهة أخرى ، فيحرص على صورة يظهر بها قدام الأخرين ، صورة ذات مواصفات خاصة .. فى حين يسلك على سجيته وبعفوية ، متى كان بمفرده بعيداً عن الآخرين ، وفى غياب الرقابة أو حتى الملاحظة .

كيف يرى الناس الراعى :

لقد درج الشعب والمخدومون على النظر إلى الراعى باعتباره طرازاً خاصاً من البشر .. إنسان ذو مواصفات غير تقليدية . حيث استقر فى وعى الكثيرين أن الراهب أو الكاهن أو رجل الدين بشكل عام : لا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الآخرون ، فيضعونه بذلك فى منزلة تتجاوز مستوى البشر العاديين : الذين يأكلون ويشربون ويخطئون ويجاهدون .

عندما سُئل أحد الأطفال - وهو ابن لأب كاهن - عن آخر مرة زار فيها الدير ، أجاب فى بساطة «عندما كان أبى شاباً» ويقصد بذلك عندما كان أبيه مجرد إنسان ، إذ يُعدّ الكهنة خلائق غير البشر ، وهكذا فقد جاء عندما كان أبيه ينتمى إلى البشر العاديين .

وهذا حق من بعض النواحى ، لذلك فإن الشعب يأتمن الكاهن على أولادهم وبناتهم وأسرارهم ويثقون فيه وفى كل ما يقوله ، ولا يعودون يفكرون فيه إن كان صغير السن أو قليل الخبرة ، وينأون به عن كل ضعف وشبهة .

وهكذا الخادم بالنسبة لتلاميذه ومخدوميه ، فإزاء هذه الفكرة التى رسخت فى عقول الكثيرين ، يحرص على الحفاظ عليها غير مشوبة أو منقوصة ، مهما كلفه ذلك من عناء ، فى سبيل الفصل بين الوضعين : (أمام الآخرين وبمفرده) .

إنه يخشى أن يُصدم الناس متى وجدوه قد وقع تحت الضعف بأية درجة ، ولكن صدمة الناس ستكون أقوى عندما يكتشفون زيف الراعى .

محبة الكرامة تعوق خلاص النفس :

ويجب الانتباه إلى أن الانشغال بتحاشى عثرة الناس فقط ، قد يجعل جهاد الراعى جهاداً سلبياً ، إذ يركز فقط على البعد الخارجى بالدرجة الأولى ، وإنما يجب أن يكون اهتمامه الأول هو حياته الداخلية والعلاقة الحميمية مع الله ، إنه شخص يلتهب قلبه بمحبة الله ، ولقد توسَّم فى الخدمة والعمل الرعائى فرصة للالتصاق بالله والتمتع بحضرته الدائمة من خلال الإفخارستيا والكتاب المقدس وخلواته الخاصة ..

إن الراعى والمكرس (بشتىّ أشكال التكريس) هو إنسان استبدل حياة الاستعداد للملكوت بالتوبة والجهاد ومحاربة أهوائه بالدخول فى عهد الأبدية منذ الآن ، أى أنه استبق الوقت ليبدأ أبديته مبكراً ، فما الأبدية إلاّ الالتصاق بالله والتخلّى عن الهموم العالمية .

أمّا ذاك الذى استُقطب لدائرة الكرامة الباطلة والمديح المُفسد ، فإنه يتشكل له مع الوقت « تمثال ضخم » يقدم الرعايا البخور قدامه ، ومن ثمّ يحرص صاحبه على أن يبقى ذلك

التمثال شاهقاً فى الهواء لا يعلوه الغبار ، ولا يُفقد جزء منه ، بل قد يغضب إذا أُهين أو انتقد من الآخرين ، ولا مانع من أن يصف نفسه بالضعف ويرميها بالتهاون أمام الآخرين ، وعندما يخطىء يحزن : لا لأنه أحزن قلب الله ، أو كسر الوصية ، أو حتى لأنه أعثر الشعب ، وإنما يحزن لأن صورته قد اهتزت مما يقلل من تقدير الآخرين له !

ولكن هذا لا يعنى أن يحيا بلا كرامة ، سواء كرامة الكهنوت أو كرامة الحياة الطبيعية ، فهناك فرق بين محبة الكرامة والسعى فيها ، وأن يحيا الشخص مكرماً وقوراً ، فالخادم يحمل فى شخصه كرامة السيد المسيح ومجده .

مواجهة النفس مقابل المديح :

الخطورة أن يصدق الراعى - بمرور الوقت - ما يراه الناس فيه ، فيطمئن بذلك إلى قداسته وتفوقه وملائكيته ، وفى حين لا يفكر فى حجمه الطبيعى (أو الحقيقى) فإنه معنىّ برأى الآخرين فيه ، وبذلك **يجعل ضميره فى أفواه الآخرين** ، فماذا لو كان أولئك الآخرون : مرائين مداهنين ؟ ، وماذا لو كان

أولئك هم الجماعة التى تحيط به وقرّبها إليه ، ومن ثم يرى نفسه من خلالها ؟! فى هذا يقول القديس بولس « لأن من من الناس يعرف أمور الناس إلاّ روح الإنسان الذى فيه . هكذا أيضاً أمور الله لا يعرفها إلاّ روح الله ... ولكن الإنسان الطبيعى لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة . ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يُحكم فيه روحياً ، وأما الروحى فيحكم فى كل شىء وهو لا يُحكم فيه من أحد » (كورنثوس الأولى ٢ :١١و١٤و١٥) .

على الخادم أن يراجع ذاته باستمرار قائلاً :

« لا تظن ذاتك شيئاً .. انك أعلم الجميع بخطاياك وضعفاتك .. حتى وإن لم يلحظ الآخرون ذلك .. إن الله ناظر إلىّ ، ومن القبيح أن يسترنى هو بجناح رحمته فأتمادى .. فإن مرّر الناس بعض خطاياى .. بل وإن مرّرها الله ذاته – وهذا دأبه معى – دون عقاب وقتى .. فإنه يتوجب علىّ عدم التغاضى عنها .. لأنه إن ذكرنا خطايانا ينساها لنا الله .. » .

كذلك فإننا قد نضلّ كثيرين بهذا الزيف ، إذ يتعاملون معنا من هذا المنطلق ، وقد نجلب عاراً على إسم المسيح وعلى كنيسته

متى حدث وصدر عنا ما لم يكونوا يتوقعونه .. ومن جهة أخرى فقد يتوقعون أن يصلوا إلى هذا المستوى من القداسة (وفق ما يرونه) متى ولوجوا ذات الطريق الذى سلكه الخادم ، فإذا حدث ولم يحققوا ذلك صاروا فى خطر شديد .

ما بين المخدع والمجتمع :

على صعيد آخر فقد يشعر الخادم أو الراعى بشكل عام عندما يأوى إلى منزله ، أنه فى احتياج إلى الخروج من « جو » الكنيسة والخدمة والطقوس ، وأن يتخفف من ذلك العبء الذى يضعه فوق كاهله للمحافظة على مظهر القداسة ، ومن ثم فقد يلجأ إلى مطالعة الجرائد أو مشاهدة التليفزيون أو التشاغل بشكل عام بأى شيء مغاير لطبيعة دعوته وخدمته ، والحقيقة أنه لا مانع فى ذلك ، باعتبار أن للخادم « بعداً اجتماعياً » شريطة أن يتم باعتدال وبوعى دون مغالاة ، مثلما كان الكهنة واللاويون فى العصر المكابى يتركون خدماتهم فى الهيكل لمتابعة دورة الألعاب الأوليمبية (مكابيين الثانى ٤ : ١٤و١٥) . وقد يؤثر ذلك بدوره على تدبيره الخاص ، فتتحوَّل قراءاته الخاصة وصلواته

وجهاداته ، من المخدع إلى العبادة الجماعية ، بحيث يكتفى بما يمارسه من صلوات وتسابيح عامة داخل الإطار الليتورجى ، دون الاهتمام بجهاده الخاص . جدير بالذكر هنا أن السبح الباطل يُغذى الحرارة فى العبادة الجماعية بسبب وجود آخرين قد يهبوه أجرته (معنوياً) على ما يقوم به من خدمة .

وهكذا يظهر الحجم الطبيعى والحقيقى للخادم وهو بمفرده ، سواء بين أفراد أسرته حيث يراعى نسبة متواضعة من الحرص ، أو فى حجرته الخاصة حيث قد يتخلى تماماً عن الأمانة ، لذا فإن الخادم يحتاج إلى وقفات منتظمة – على مسافات متقاربة – مع نفسه ، لتحديد موقعه وموقفه من الله ، فهو معنى بخلاص نفسه فى المقام الأول ، مهتماً بذلك جيداً ، ومن العار أن يخلص تلاميذه ويُحرزون أنصبة أبدية فى حين قد يُعاقب هو .

يقول القديس يوحنا ذهبى الفم : « فبعد أن ينجح المرء بأن يشفى نفسه من علله الخاصة ، وهو الأمر الذى قد يكون أسهل ، يبقى عليه أن يشفى علل الآخرين » (الكهنوت / المقالة

السادسة) .

الراعى إنسان محب للصلاة .. محب لمطالعة الكتاب المقدس والتأمل فيه .. محب للتسبيح .. له خلواته الخاصة وتأملاته وعلاقته الخاصة الحميمية مع الله ، ليس لكى يضيف الجديد إلى رصيده الذى يسحب منه فى الخدمة ، بل لأن ذلك هو نصيبه الشخصى من الله .. وجبته هو .. شبعه .. لاسيما من تلك القوة الفائقة التى ينالها من ذبيحة الإفخارستيا ، التى لا تضاهيها قوة أخرى ، كما تعد الركيزة الأساسية فى حياته مع الله ، فالكاهن أو الراعى عموماً هو إنسان محب للمسيح إلى أبعد حد ممكن ، وهو يتلاقى مع المسيح من خلال خدمته ومن خلال مخدعه على حد سواء ، ولا يعنيه مديح الناس وتقديرهم له ، يقول القديس يوحنا ذهبى الفم : « إن الكاهن غير التقى مثل القناة الحجرية توصل المياه إلى الزرع دون أن تستفد منها » .

الاهتمام بالقادة :

لذلك فإن اهتمام الأب الأسقف بكهنته مسئولية تأتى فى المرتبة الأولى بين اهتماماته ، وكذلك اهتمام الكهنة بالخدام .

فـهم أحـوج الكل بالرعـاية ، إذ أن الاهتـمـام بالخـادم يعنى الاهتمام بالتالى بمن يخدمهم ، واهتمام الأب الأسقف بالكاهن يعنى اهتمامه بالشعب الذى يخدمه هذا الأب الكاهن ، إذ يمثل بالنسبة للأسقف « نبض الشعب » ومن الخطورة أن يترك الخادم أو الأب الكاهن ينزف فقط .

فإنه لا يكفى أن يرى الكاهن الخدام والخادمات يترددون بانتظام على الكنيسة ، فيطمئن بذلك على **حياتهم الروحية** ، إذ قد تكون المسيرة مستمرة فقط على المستوى الخارجى ، بينما قـد توقـفـت منذ زمـن على المسـتـوى الداخلى ، وبذلك قـد تُخفى « الأُطر الجميلة » ورائها العديد من المتاعب والمعاناة .

من المهم أن ندرك أن المخدومين (الرعية) يتأثرون بشخصية الراعى ومستواه الروحى الحقيقى ومصداقيته ، أكثر بكثير من مظهره وتعليمه ووعظه وتبكيته وشعاراته وما ينادى به من قيم ومبادىء ، ومهما كان حريصاً وحصيفاً صاحب عظات منمقة وسلوكيات جوفاء .. وهم (أى المخدومين) لا يخطئون ذلك مع الوقت . لذلك فإننا نجـد الكنيسـة وقد اصطبغت بصبغة الراعى

مع الوقت ، إذ يُضفـى من روحـه ومنهجـه على شعبه بمـرور الزمن [1]

فقد لا يتلقّنون منه تعبيرات بعينها أو ينقلون عنه بعض الآراء ، أو يتـعلمـون منه بعض المهـارات ، ولكنه يوقظ الروح القدس داخلهم ليعمل فيهم فيثمر ثماراً متنوعة كثيرة وتظهر عليهم مواهب وثماراً لم تكن فى الأب ذاته .

العثــرة والريــاء :

ولقد حدث خلط ما بين مفهوم **العثرة** من جهة **والرياء** من جهة أخرى ، فالخادم أو الراعى والذى أصبح مسئولاً عن أفراد الشعب جميعاً ، يحذّر كثيراً من إعثار الآخرين من المخدومين ، والهدف من تحذيره هو ألاّ يأتى سلوكاً من شأنه تشكيك الآخرين فى الوصايا أو مصداقية الراعى أو القوانين الكنسية . فى حين أن الرياء هو أن يظهر الخادم خلاف ما يبطن ، بل ويحرص بكل قوته كى تكون جميع أقواله وسلوكياته مما لا

١ - يقول الرئيس الأمريكى الأسبق إبراهام لنكولن « تستطيع أن تخدع كل الناس بعض الوقت ، وبعض الناس طول الوقت ، ولكنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس طوال الوقت .

يطالها الانتقاد ، حتى وإن كانت له قناعة داخلية تتناقض مع مسلكه .. وقليلاً قليلاً تصير له عباءة التقوى ، يرتديها خارج منزله فى حين يتخفف منها حالما يصل إليه ، ويجد نفسه بمرور الوقت فإذا به يُلقى بتلك العباءة بتلقائية على جسده حالما يوضع فى موضع المعلم من تلميذه .

جدير بالذكر أن كلمة « مرائى » أطلقت فى البداية على الممثل المسرحى ، باعتباره « يتراءى » مع آخر للجمهور من فوق خشبة المسرح ، ولأنه يتقمص شخصية غير شخصيته ويظهر بما لا يعبر عن حالته الحقيقية ، فقد أصبح مدلول كلمة « مرائى » يفيد الشخص غير الواضح وغير الصادق ، راجع (رومية ١٢ :٩ ، كورنثوس الأولى ٦ :٦ ، تيموثاؤس الأولى ١ :٥) .

والفرق بين خطايا أو أخطاء الراعى من جهة والمخدوم من جهة أخرى ، هو أن الراعى يخطىء **سراً عن معرفة** ، فى حين يخطىء المخدوم أو الشخص العادى **جهراً وعن جهل** .. لذلك فإن ما يُنسب للراعى باعتباره « خطايا » يعتبر « جهالات » بالنسبة للشخص العادى أو المخدوم .

والعجيب أنه يبدو خبيراً فى الفن والسياسة والطب والرياضة وشتى القوانين ، على الرغم من أن ذلك ليس من اختصاصه ولا هو ضمن وزنته المؤتمن عليها ، وإذا اعترف بعدم درايته بمثل تلك الأمور فلن يحتقره أحد ولن يبكّته إنسان ، ولكن حياء الذين يسمعونه واتضاعهم ، وتأمين البعض الآخر على ما يُدلى به من آراء.. يحرمه فرصة الانتباه إلى هذه الضعفة. بل أن المخدومين يتوقعون أن يكون حديث الراعى حديثاً روحياً « قارنين الروحيات بالروحيات » (كورنثوس الأولى ٢ :١٣) فالناس يستطيعون الحصول على مثل تلك المواد من مصادر أكثر تخصصاً ! . وهكذا يبدو الخادم أمامهم كمن يضيق ذرعاً بشئونه ومسئولياته ويود الخروج عن الحديث فيها .. فإذا كان الخادم لا يشعر بذلك ، فعليه أن يدرك جيداً أن المستمع هو أكثر حساسية دائماً من المتكلّم !!

روى أحد الخدام أنه فى أول رحلة له مع بقية الخدام ، صُدم عندما شعر وكأنه فى اجتماع فتيان إعدادى أو ثانوى .. قال لقد تحرر الخدام يومها من القيود التى يلتزمون بها والتى وضعها الناس عليهم ، مشتاقين (بالطبيعة) إلى السلوك

العفوى الطبيعى ، ولأن ذلك لا يتأتى لهم فى الأوقات العادية بطريقة سلسة ، فإن سلوكياتهم فى ذلك اليوم جاءت متجاوزة الحد المألوف . ثم أردف ذلك الخادم قائلاً : لقد استأت فى البداية وترددت إن كنت سوف استمر فى الخدمة أم لا ، إذ خشيت من ذات النتيجة ، ولكنى تماسكت بالفعل لمدة تقرب من السنة ملتزماً جاداً ، غير أنى ما لبثت أن وجدت ذاتى أسلك ذات السبيل وانتهج ذات المنهج ، ذلك بالطبع بسبب ضعفى من جهة ، وبسبب ما تلقيت من تأنيب وتقريع ودعوات حارة متكررة إلى التباسط !!

من هنا يمكن أن نجد تفسيراً للمستوى الروحى المتدنّى لبعض من أبناء المسئولين فى الكنيسة وكبار الخدام ، حيث يبدون وكأنهم أشخاص غير روحيين ، أو كمن لم ينشأوا فى بيئة روحية ، فقد يسلك رب الأسرة بعفوية شديدة وتلقائية ، غير متحسّب لعثرة أحد أو إدانة آخر . هنا يفاجأ الابن بالهوّة السحيقة ما بين الصورة التى يبدو عليها والده فى الكنيسة ، حيث تخضع له الرؤوس ويقتدى به الجميع ، ويثير حضوره أهمية واهتماماً ، فى حين يسلك بينهم مثل أى شخص عادى فى تناوله لقضايا

الأسرة والعائلة بل والكنيسة ، فيصدر عنه ما لا يجب من تصريحات ، وما قد يتعفف عنه بعض من أولاده الروحيين . وهنا تهتز صورة الكنيسة كلها متمثلة فى شخص والده ، ومن ثم لا يحترم بدوره كاهناً آخر أو مسئولاً ، إذ شهد واحداً من رموز الخدمة والكنيسة فى عمق ضعفه فى بيته ، وبذلك فهو يتوقع أن يكن جميع الكهنة والخدام فى الدرجة ذاتها من الضعف[١].

إخفاء الفضائل لا النقائص :

يجب أن يكتشف المخدومون بأن الراعى هو أروع وأعظم بكثير مما يظهر عليه قدامهم من قداسة وورع ، فهو **يجاهد لكى يخفى فضائله لا نقائصه** ، ويسعى كى لا يظهر عليه ما يجلب له الكرامة والمديح . لقد سعى القديسون على مر العصور إلى ذلك بكل قوتهم مع الحرص على عدم عثرة الآخرين . وللراهب قسم من قلايته يسمى « المحبسة » لا يدخلها أحد غيره، إذ فيها سرّه وتدبيره الروحى .. مما يجب ألا يطّلع عليه سوى أبيه الروحى ، وهى – أى المحبسة – تعكس جهاداته الحارة،

١ – راجع كتاب « معلمين كثيرين » للمؤلف .

سواء من جهة طريقة نومه أو محتوياتها ، أو ما يعلقه على جدرانها من آيات وأقوال آباء ، تعبّر عن حالته الروحية وأفكاره .

وفى ذات مرة أجبر بعض الأخوة القديس مقاريوس الكبير على تناول الطعام معهم فأطاع ، ولكن تلاميذه عاتبوهم فيما بعد لأن القديس اعتاد أن يضاعف من صومه فى كل مرة يضطر فيها إلى الأكل قبل الموعد المحدد ، أو كمية أكبر من المعتاد . ومرة أخرى أوصى أحد القديسين تلميذه قائلاً : إذا سأل عنى سائل ، فلا تجبه بكلام وعظى ، بل أخبره بما أفعله سواء أكنت نائماً أو مصلياً أو آكلاً ..

الاتضاع الزائف :

إن الراعى الصادق يعذّبه مديح الآخرين وإكرامهم له ، لأنه يدرك جيداً كم هو غير مستحق للكرامة وغير أهل لما يكيلونه له من الثناء ، ولكونه يخشى على عثرة الشعب إن هو أفصح لهم عن ذلك ، فإنه يصمت متألماً إذ يعتبر ذلك (أى صمته) خيانة كبيرة .. وفى المقابل قد يدّعى خادم ما أمام الآخرين بأنه خاطىء وشرير ومتهاون وهو كذلك ، غير أنه إنما يقول ذلك

مجلبة للكرامة إذ يجامله مستمعيه ، منكرين عليه اتهامه لنفسه وتحقيره لها لأنه فى نظرهم قديس وبار ، وكلما أمعن هو فى وضع نفسه رفعوه هم بالأكثر وهو راض مسرور فيما بينه وبين نفسه . ولكن الأخطر من ذلك أن يغضب ويثور إذا لم يعامله الآخرون كنبى وقديس ! وبالتالى لا يقبل العتاب أو الانتقاد ..

وبينما يجهد نفسه كثيراً للاحتفاظ بمظهر القداسة ، فهو فى الواقع يحتاج بالأولى لهذا الجهد فى بنائه الداخلى وهو الهدف الأهم ..

يقول القديس يوحنا ذهبى الفم : « عندما يمتدحنا الآخرون ، فإذا لم تكن النفس منّا فى أسمى مكان ، فإن المديح يمكن أن يلقى بنا إلى طريقين متعارضين ، إمّا إلى التملق الذليل ، وإمّا إلى الغطرسة الجنونية ، فننحنى إلى الأرض أمام الذين يمدحوننا ويتملقوننا ، أو نتصرف بكبرياء أمام الصغار والمستضعفين حتى نسحقهم (أحاديث فى الكهنوت / المقالة السادسة) ويقول أيضاً « إنى لا أستطيع أن أتقبل لا الإهانات ولا الكرامات باعتدال ، لأنى أنجرف فوراً إلى التطرف : التكريم

يسكرنى ، والإهانة تقتلنى » .

زار مرة أحد الرهبان الشبان القديس سيرابيون ، وكلما حاول الأب إكرامه أو تقديمه على نفسه ، استعفى ذلك الشاب واصفاً نفسه بالحقير والشرير والصغير ، ولما كان الأب يدرك أن ذلك الزائر غير صادق فى ملامته لنفسه ، فقد نصحه بلطف أثناء تناول الطعام ، بأن يهتم بالجلوس فى قلايته والتخلى عن الدوران وكثرة الخروج ، فإذا بالأخ يغضب ويتغير وجهه . فعاتبه الأب سيرابيون على ذلك قائلاً « يا ابنى ليس الاتضاع أن تلوم نفسك ملامة باطلة ولكن الاتضاع هو أن تحتمل الملامة التى تأتيك من الآخرين » .

ومن تاريخ الكنيسة هذه الواقعة المؤثرة :

فقد قام شخص شرير بقتل أحد الرعاة بعد فترة وجيزة من تعيينه ، وإذ كان الشعب بسيطاً فإنه لم يكتشف أن الموجود الآن هو قاتل انتحل شخصية الراعى بمهارة شيطانية . فلقد قضى عدة سنوات يعظ بتدفّق ويصلى بحرارة ويرتل بصوت شجى مؤثر ، كما كان إدارياً فذاً أقام العديد من المشروعات العملاقة .. غير

أن أحداً لم يكتشف أمره .

ولكنه تبكت من ضميره ذات يوم فدخل إلى الهيكل وأغلق خلفه الباب ، ثم وقف ووجهه ناحية الشرق صامتاً لعدة دقائق ، ثم نظر إلى حضن الآب وتنهد عميقاً وقال مخاطباً المسيح من خلال أيقونة « البانطوكرواطور » :

– لقد انطلت عليهم الحيلة ، ولكن ماذا عنك أنت ؟

وإذا بصوت مثل خرير الماء يخرج من الأيقونة :

– كلا بالطبع لم تنطلِ عليّ ..

– فلماذا تركتنى أرتكب القتل وانتحل صفة الراعى ؟

– ذلك لكونهم أشراراً لا يستحقون إلاّ شخصاً مثلك .. إنى بك أؤدبّهم .

– حسناً ولكن ماذا عنى أنا ؟

– أما بخصوصك أنت فلى شأن معك ، فإن لم تتب وتقلع عمّا أنت فيه فلسوف تفقد أبديتك وتهلك .

يقال أنه مضى واعترف وتاب عن ذلك وتخلى عن ذلك العمل .

ولكن أين يكمن العلاج ؟

حيال ذلك يمكن أن يجاهد الإنسان على محورين أو مستويين ، الأول : أن يعرف الشعب بطريقة أو بأخرى أن الخادم (أو الراعى بشكل عام) هو شخص يجاهد مثل كل الناس ، له جوانب إنسانية تؤخذ فى الإعتبار ، لا ننكرها كما أنها لا تعيبه ولا تقلل من مصداقيته كراعى ، وإلاّ فإنه سيصبح معذباً ومثقلاً ضميرياً وهو يمارسها بسبب اضطراره لها ، فإن كلا الطرفين : الراعى والشعب لهما جوانبهما الإنسانية الطبيعية ، وإنما يتميز الراعى على الشعب بأنه أكثرهم دراية بحروب الشياطين من جهة وأهمية القداسة من جهة أخرى ، وهو على درجة روحية عالية أهلته لمثل هذه الدعوة ، يضاف إليها ما تضفيه رتبته عليه من نعمة . ولكنه مع كل ذلك واقع تحت الضعف مثلنا ، قد يخطىء ويلزمه التوبة أيضاً والاعتراف مثل أى عضو فى الكنيسة ، وإن كان القديس يوحنا ذهبى الفم يقول أنه يجب أن

يكون الفرق بين الراعى والرعية ، مثل الفرق بين راعى الخراف والخراف ذاتها .. (وهو بالطبع لا يقصد النزول بالشعب إلى مستوى الخراف ، بل يقصد سمو الراعى) .

ولكن على الراعى أيضاً ألاّ يبالغ فى إظهار المسافة الكبيرة بين مستوى القداسة فيما بينه وبين الشعب ، فلا يتظاهر بالصوم الطويل والنسك الشديد وكثرة الاطلاع والتأفف من الضعفات البشرية ، فى حين لا يكون فى الواقع كذلك ، فيتبكت من ضميره لهذا التناقض والذى – يوماً بعد آخر – لا يستطيع منه فكاكاً . والمستوى الثانى هو أن يجاهد الراعى حتى يصبح على المستوى الذى يتخيله فيه الناس ، وهو خيار أفضل بلا شك ، ليس من أجل الناس بل بالأولى لأجل التمتع بعشرة حقيقية مع الله .. فهو يهمه بالدرجة الأولى أن يخلص .

وقد يرى الراعى حلاً آخراً لهذه الإشكالية وهو أن يسلك بمنهج واحد . ولا بأس فى ذلك على أن يكون ذلك المنهج هو الصلاح والمصداقية واللياقة على المستويين الداخلى والخارجى ، لا العكس ، بحيث يُجاهر بضعفاته وتهاونه ، إذ أن خطورة هذا

الخيار ليست فى عثرة الناس فحسب ، بل ربما كان ذلك بإيعاز من الشيطان لكى يوقعه فى اليأس ، إذ يجعله يفقد حتى المظهر الخارجى الجديد ، فإذا ما أراد أن يبدأ من جديد : وجد الأمر صعباً للغاية ، فيصاب باليأس ويقعد عن العمل ، ومن ثم يستمر فى المنهج الذى اختاره !

وردت قصة فى بستان الرهبان عن راهب شوهد وهو يتخلص من مكتبته الكبيرة ، وعندما سُئل عن ذلك قال أن له أربعة عشر عاماً يقرأ ويدرس ، ثم حدث أن تعرض لموقف اختبر فيه احتماله فلم يحتمل ، وعندئذ قرر أنه قد جاء الوقت الذى يبدأ فيه أن يحيا ما قرأه .

قد يثنى الناس على الراعى ويكيلون له المديح ، ولكن عليه - كما سبق القول - ألاّ يفرح بذلك ، فإذا امتدحوه استراح وهدأت مشاعره ورضى عن نفسه وتوقف عن السعى ، إذا انتقدوه تذمر ، وذلك بغض النظر عن كونهم على حق أم لا فى كلتا الحالتين ، مثلما تمتدح أم ابنها بسبب بعض الصفات الخارجية مبالغة فى الإطراء عليه فتفسده بذلك إذ يكف عن

الاستذكار مثلاً أو السعى فى تطوير نفسه ، وإذا لامته تذمر . ولكن بدلاً من حمل الناس على الإعجاب بشخصية الراعى ، يمكنهم أن يحبوه بسبب وجود المسيح فيه ، ويحبون كذلك المسيح من خلاله .

إن قبول الإنسان للمديح يعّد بحد ذاته خطراً كبيراً يتهدد خلاصه بلا شك ، ويحجب عنه نعم الله من جهة ، ويُضعف فيه الرغبة فى محاسبة النفس من جهة أخرى . وأما **صمام الأمان** فى هذه القضية فهو **مخافة الله** « خافوا الله واعطوه مجداً » (رؤ ١٤ :٧) ، فمن كانت مخافة الله فى قلبه ، فهو إنسان يشهد له الروح القدس ، ويتكلم عنه ويقضى له ، ويقوده على المستويين الداخلى والخارجى .

دير البرموس
أكتوبر ٢٠٠٢م